آليات ومناهج تعليم الكتاتيب بالجريد التونسي من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1889

د. سكينة عصامي. جامعة صفاقس– تونس.

الملخص

مثل تعليم الكتاتيب أو التعليم التقليدي والعتيق خلال القرن التاسع في منطقة الجريد قاعدة التعليم الإسلامي والعربي والنواة الأولى لظهور المؤسسات التربوية والتعليمية، كما مثلت الكتاتيب ببرامجها البيداوغوجية ونظامها التعليمي إرثا ثقافيا دخل جانب كبير منه طي النسيان. وعرفت رغم تواضعها من حيث المظهر الخارجي وبساطة الأدوات وزهد التكاليف، نجاحا كبيرا تجسد في انتشارها في كامل المنطقة والإقبال المكثف لعدد التلاميذ على التعليم داخلها. كل ذلك جعل من الجريد بين المناطق الأخرى قطبا فكريا وثقافيا هاما.

مقدمة:

مثّلت منطقة الجريد[385] منذ الفترة الوسيطة مركزا فكريا وأدبيا هاما، فقد عرفت خاصة بعلو شأنها في مجال التعليم حيث وجدت مدارس عديدة وكتاتيب كثيرة كانت تؤدي تعليما دينيا متكاملا للناشئة، فقليل أن تجد في تلك الفترة من لا يحسن القراءة والكتابة . وفي كل سنة تفد على المنطقة أعداد متزايدة من التلاميذ من كل الآفاق تمتلئ بهم الخلوات وتعج بهم بيوت الطلبة لرغبتهم في التعلّم والتفقّه في الدّين. وقد امتاز تلامذة الجريد عن غيرهم بما لهم من الاستعداد الفطري والذكاء الطبيعي بمقتضى طقس بلادهم وغذائهم[386]. كما كانت لهم سرعة كبيرة في التحصيل في المدة القليلة ما كان يحصّله غيرهم في أضعافها وفي هذا السياق قال عنهم الشيخ محمد السنوسي: *"إنكم معاشر الجريد تحصّلون في السنة بما لم يحصله غيركم في سنوات"* [387] .

ومنذ الفتح الإسلامي تواصل الاعتناء بالكتاتيب القرآنية وتطوير مناهجها العلمية والتربوية، فعرفت الكتاتيب على مستوى الآليات والمناهج التربوية تطوّرا هاما ساهم بشكل كبير في التعريف بالخصوصية الجريدية في مجال تحفيظ الأطفال القرآن الكريم كالعناية بالنصوص القرآنية والمتون العلمية أو المواد المستعملة كاللوح و"الصمق" والطين أو "الطفل".

لقد اعتبر الكتاب القرآني إحدى المؤسسات التي تنتمي إلى منظومة التعليم الديني والشرعي أو التعليم التقليدي والعتيق، هذه المؤسسة ظلت لفترات زمنية طويلة الحلقة الأساسية والأولى التي ينهل منها الطالب المعارف الدينية والعلوم. وفي هذا الإطار اهتم أهالي الجريد عبر العصور بتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن الكريم وكان لهم في ذلك طرقهم

الخاصة والمناهج التعليمية والآليات التدريسية التي تمكن الطالب من أخذ زاده الأولي من الكتاب سواء تعلق الأمر بالطرق التعليمية المرتبطة بالرسم والضبط إضافة إلى الأنشطة الموازية.

---

[385] الخريطة رقم 1.

[386] خريف (إبراهيم)، **المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد** ، تونس 1964، ص 70.

[387] **نفس المرجع**، ص 43.

فكيف كان حال التعليم في كتاتيب الجريد من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1889؟ وما هي أهم الخصوصيات والمناهج التعليمية السائدة داخل هذه المؤسسات؟

الخريطة رق1م: تحديد الجريد من البلاد التونسية

المصدر: Atlas des paysages de la Tunisie

Page 280

I- خصوصيات ومناهج تعليم الكتاتيب في الجريد التونسي

خلال القرن التاسع عشر كان التعليم في منطقة الجريد بالتأديب ويسمى معلمه المؤدب والمكتّب وموضعه يسمى الكتّاب [388]، *"ولفظ "الكتاب" يراد به موضع تعليم الكتاب قال المبرد المكتّب موضع التعليم والجمع الكتاتيب والمكاتب"* [389].

[388] ابن عاشور (محمد الطاهر)، **أليس الصبح بقريب**، المصرف التونسي للطباعة، تونس 1967، ص 48.

"كما كان يطلق في إفريقية منذ عهد بعيد على المدرسة الابتدائية أو "المكتب" بالعربية الفصحى "اسم الكتاب" [390]، وفي العصر الحفصي وجد مكتب في القصر السلطاني خاص بالأمراء الصغار وأطفال كبار رجال البلاط، وكان المؤدب يعلّم الأطفال القراءة والكتابة وترتيل بعض السّور التي يردّدونها بصوت واحد[391]. والكتاب يمثل في الماضي *"المدرسة الابتدائية التي يقصدها التلامذة عند بداية عهدهم بالدراسة وكثيرا ما يعبّر عنه بالمكتّب وقد ورد ذلك في رسوم قديمة"* [392]. في هذه المؤسسات كان التعليم أساسا دينيا يدرس التلاميذ القراءة والكتابة والقواعد الأولية للّغة العربية[393].

لقد كانت منطقة الجريد تعّج بالكتاتيب[394] *"بحيث تكاد أن لا تجد مسجدا ولا زاوية بدون معلم لتعليم الصبيان مبادئ الكتابة وحفظ القرآن"* [395]، كما وجدت في المنطقة العديد من الزوايا والجوامع والمدارس ذات الصبغة الدينية بقيت إلى اليوم تدّل دلالة واضحة على أهمية هذه المؤسسات الدينية فلكل حي من الأحياء جوامعه وزواياه، علاوة على أنّ هذه المؤسسات كانت ولا تزال الأمكنة التي تقام فيها الصلوات مما أعطاها دورا ثقافيا هاما[396]. ولا غرابة في ذلك لأنّ التعليم في تلك الفترة كان دينيا بالأساس[397]، بل يمكن القول أنّ هذه الزوايا والجوامع والمدارس الدينية هي التي سمحت لأهالي المنطقة بالمحافظة على نوع معيّن من الثقافة العربية الإسلامية[398]: *"فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة فلا إسلام بدون تعليم"* [399].

لقد كانت هذه الكتاتيب على نوعين نوع عام يشارك فيه العموم بمقابل تافه يدفعه الآباء للمؤدب ونوع خاص ببعض البيوتات يخصص فيه للمؤدب جراية من صاحب المنزل ويعامل بإجلال وتكريم وتقوم ربة المنزل بجميع الشؤون المتعلقة به من مأكل ومشرب وملبس ونحو ذلك ويدّرس لخصوص أبناء صاحب المنزل ولا يشارك

---

[389] ابن منظور، **لسان العرب**، ج 13، مادة "كتب"، دار صادر، بيروت، 2003.

[390] برنشفيك (روبار)، **تاريخ إفرقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م** ، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان 1988، ص 374-375.

[391] **المرجع نفسه.**

[392] قاسم (أحمد), "الكتاتيب بالبلاد التونسية", **المجلة التاريخية المغاربية**, سنة 25, عدد 89 – 90, مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات, زغوان – ماي 1993, ص 143.

[393] العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس االمعاصر (1883–1958)**، مركز النشر الجامعي، تونس 2003، ص 24.

[394] الصورة رقم 1.

[395] ابن عاشور (محمد الفاضل)، **الحياة الفكرية والأدبية في تونس**، القاهرة 1956 ، ص 73.

[396] ابن (النوري محمد الطيّب)، **الوضع الاقتصادي في توزر خلال القرن التاسع عشر (1856–1880)**، شهادة الكفاءة في البحث 1977 ، ص 44.

[397] **المرجع نفسه.**

[398] **المرجع نفسه.**

[399] الحداد (الطاهر)، **التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة**، تقديم وتحقيق أنور بوسنينة، الدار التونسية للنشر، تونس 1981، ص 20.

أبناءه إلا لمن أذن له من الأجوار والأقارب بغير مقابل للمؤدب[400]. تميّزت الكتاتيب بهندسة معمارية بسيطة تكاد تخلو من كل زخرف باستثناء القليل النادر وفضاء العلم هذا عادة ما يكون دكانا مستقلا أو حجرة مجاورة للمسجد أو جامع وأحيانا غرفة في منزل بعض العائلات العريقة، أما أثاث الكتاب فعادة ما يتألف من بعض الحصر[401].

جرت العادة في منطقة الجريد أن يذهب الصغار من الذكور إلى الكتّاب كما أخبرنا بذلك الأهالي الذين عادت بهم الذاكرة إلى أيام الكتاتيب، أما الفتيات فلا حقّ لهنّ في التعليم إذ يقع تعليمهنّ لقنا بحفظ بعض السور القرآنية اللّازمة للقيام بفريضة الصلاة. ولا تتعلّمن الكتابة لأنّ أهالي الجريد كانوا يعتقدون كما كان سائدا في كامل الإيالة بأنّ التعليم يفسد الوعي الديني والروحي عند البنات[402] كما أنّ تعليم البنت خاصة القراءة والكتابة يفسدها ويسّهل لها مراسلة عشاقها ومطالعة كتب الغراميات التي تؤثر فيها[403].

وفي هذا الإطار يورد ابن أبي الضياف موقفا واضحا وصريحا يتأسس على برنامج يلخص في هذه النقاط: تعلّم ما يلزمها من ضرورة دينها من توحيد وقيام وصلاة وحقوق زوجها واجتناب الفواحش ولا فائدة لها في تعلّم ما زاد عن ذلك، وبذلك فإن المسلمة حسب رأيه لا يتجاوز تعليمها ضروريات دينها والخياطة والطرز والنسج ومصالح البيت وتدبير شؤون المنزل[404] لذلك يقوم الأب في منطقة الجريد وأولاده الذكور بتعليم بناته بينما يأتي الأثرياء والأعيان بمودّب إلى المنزل لتعليم البنات تلقينا دون كتابة.

في أوّل أيامه في الكتّاب، يحمل التلميذ بعض النقود إلى المؤدّب ويعرّف بنفسه فيعطى له لوح صغير[405] في حجم الكف يطلى "بالطْفَلْ"[406] وعندما يجفّ يسطّر بقلم القصب الجاف دون غمسه في "الصْمَقْ"[407] أو الحبر. تكتب البسملة وبعض الحروف (التحويق) ليقوم التلميذ بإعادتها بعد غمس القلم في الحبر. لقد كان العديد من التلاميذ يؤمون هذه الكتاتيب لحفظ وترتيل القرآن، ففي سقايف المنازل والزوايا

---

[400] ابن عاشور (محمد العزيز)، "التعليم الزيتوني من ترتيب المشير احمد باي إلى تأسيس مشيخة الجامع الأعظم وفروعه"، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 41-42، تونس-جوان 1986، ص 11.

[401] العياشي (مختار)، **في تاريخ المدرسة التونسية...نفس المرجع**، ص 75.

[402] Kassab (A.), *Histoire de la Tunisie, l'époque contemporaine*, STD, Tunis 1976 , p 225.

[403] المناعي (عبد الكريم)، "التونسيون وتعليم المرأة 1956-1881: دراسة في الثابت والمتحول في الذهنية التونسية تجاه تعليم المرأة المسلمة"، **المجلة التاريخية المغاربية**، سنة 25، العدد 90-89، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ماي 1998، ص 235.

[404] **نفس المرجع**، ص 209.

[405] الصورة رقم 2.

[406] طين أبيض اللّون.

[407] يأخذ الصوف من إبطي الخروف أو من الفخذين "كعال" ويكون جافا، بعد وضعه في الشمس يدّق بحجر ثم يوضع في إناء من طين فوق النار ويغطى بحجر بين الحين والآخر يحرك إلى أن يسوّد لونه ويصب عليه الماء والملح. بعد ذلك يوضع في قوارير صغيرة مع إضافة القليل من الماء ويغطى بالصوف.

والجوامع وحتى في الدكاكين وأحيانا تحت الخيام[408] ينتشر التلاميذ على اختلاف أعمارهم يحفظون ويكتبون ويكرّرون: *"عند مرورنا قرب المدرسة نسمع أصوات الصغار*

ونرى المؤدب جالسا يحيط به التلاميذ وقد كانوا يميلون رؤوسهم وهم يرددون الآيات القرآنية"[409]. إذن ففي وسط فناء الجامع أو الزاوية يجلس المؤدّب يحيط به التلاميذ حيث يجعل من أكبرهم سنا مقدّما عليهم وفي نفس الوقت مؤتمنا على مجموعة الألواح والمحابر وأقلام القصب والعصي، وكذلك مكلّفا بتصحيح الألواح، لقد كان المؤدب يملي على بعض التلاميذ كتابة الآيات وينصت إلى البعض الآخر يكرّر حفظه فيردّدون بصوت عال:

"أليف لا شيء عليه

والباء وحده من اسفل

والتاء اثنين من فوق..." [410].

بصفة عامة لقد كان التعليم داخل الكتاتيب يعتمد على طريقتين: طريقة تبتدئ القرآن من سورة البقرة ثم السّور التي بعدها إلى ختم القرآن على ترتيب المصحف، والطريقة الأخرى تبتدئه من آخر سورة من القرآن على ترتيب المصحف من المعوذتين وقد كانوا يبتدئون بفاتحة الكتاب في كلتا الطريقتين[411]. وكيفية تعليم القرآن تكون إما متقدما في السّن وحافظا للقرآن كما يمكن أن تكون مهنة التدريس وراثية يحتكرها في بعض الأحيان أعيان من عرش واحد أو عائلة واحدة من الجد المؤسس إلى الأحفاد.

لقد كان التعليم يقوم أساسا على حفظ القرآن *"فكان لا بد لطالب العلم من الصبر الطويل، وكان عليه أن يحفظ القرآن بالتردّد على كتاب من الكتاتيب"* [412]، بحيث يدخل التلميذ إلى الكتاب صغيرا ولا يغادره إلاّ وهو في سن العاشرة أو حتى في سن السابعة عشر من عمره[413] يقضّي من سبع إلى ثماني ساعات يوميا مدّة خمسة أيام في الأسبوع لأن الكتاتيب لا تغلق أبوابها إلا يومي الخميس و الجمعة زيادة على أيام الأعياد الإسلامية[414].

يوم الأربعاء يحضر التلاميذ في الجريد إلى المؤدب " الربعية "، وتتمثل في بعض النقود حسب المقدرة ومن لا يستطيع ذلك يحضر بعض البيض. وفي آخر كل شهر تعطى شهرية المؤدب حسب الاستطاعة لأن

---

[408] Machuel (M L.), *L'enseignement public dans la Régence de Tunis*, Imprimerie nationale, Paris MDCCLXXXIX , p 62.

[409] Richard (H.), *Sept semaines en Tunisie et en Algérie avec l'itinéraire et les dépenses de voyage*, Ancienne librairie Faune, Pais 1905, p 109.

[410] قاسم (أحمد), "ا لكتاتيب"... **نفس المرجع**, ص 145.

[411] ابن عاشور (محمد الطاهر)، **أليس الصبح**... **نفس المرجع**، ص 48.

[412] عبد السلام (أحمد)، **المؤرخون التونسيون في القرون 17و18و 19**، رسالة في تاريخ الثقافة، نقلها إلى العربية د.أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، 1993 ، ص 83.

[413] Kraiem (M.), *La Tunisie précoloniale*, t2,Tunis 1973, p 162.

[414] الزيدي (علي)، **التعليم بصفاقس قبيل انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية (في عهد محمد الصادق باي 1859–1881)**، شهادة الكفاءة في البحث، تونس 1979، ص 14.

مقدارها غير مضبوط وهي تتراوح عموما بين ريال وخمسة ريالات، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا المبلغ لا يخص منطقة الجريد فقط بل أنه محدّد لكامل كتاتيب الإيالة[415].

وبالرغم من صدور الأمر العلي لمحمد الصادق باي في 26 ذي الحجة/ 23 جانفي 1875 الذي يحصر حق الانتصاب للإقراء فيمن يشهد له بالأهلية دون غيره، فإن تعيين المؤدب لم يخضع لذلك[416] وبقي اختياره وتعيينه يتم حسب الشروط المعمول بها في منطقة الجريد.

تدريجيا يبدأ التلميذ داخل الكتاب في حفظ القرآن آية آية، سورة سورة وحزبا حزبا ليكون حفظ الحزب الأول إذا كان التلميذ جادا في تعلّمه بين سن السابعة والثامنة. وفي نهاية كل حزب يزيّن التلميذ لوحه[417] ويكتب السورة التي ختم بها الحزب في وسط اللوّح وتكون "الختمة" فيحضر إلى الكتاب بعض الخبز والقهوة، بين سن الثامنة عشر والعشرين يكون الطالب قد ختم كل القرآن.عند ذلك تقام له وليمة كبيرة في المنزل يستدعى إليها الأهل والأقارب وعادة ما تقوم عائلة الطالب بطبخ "الكسكسي" ويشتري له ثيابا جديدة تتمثل في:

- شاشية مجيدي.
- بدعية.
- جبة ملف.
- برنس ملف[418].

لقد عرف أهالي الجريد بحفظهم الكبير للقرآن لدرجة أنهم كانوا يعقدون المباريات في الحفظ، فيذكر أحد المتبارين آية ويذكر آخر ما قبلها أو ما بعدها وكم من ألف ثابت في الحزب، ورغم اندثار التعليم داخل الكتاتيب في عدد من مناطق البلاد خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإن منطقة الجريد بقيت من أهم المناطق التي حافظت على هذا التعليم. فبين تونس العاصمة والساحل وصفاقس وجربة، احتلت المنطقة المرتبة الثالثة حسب ترتيب عدد التلاميذ، والثانية حسب عدد الكتاتيب والمدّرسين ليكون ترتيبها النهائي الثالث حسب هذه المعطيات.

الجدول عدد 2: ترتيب القيادات حسب عدد التلاميذ والكتاتيب والمدرسين[419]

عدد التلاميذ	عدد الكتاتيب	عدد المدرسين
1- تونس وضواحيها	1- تونس وضواحيها	1- تونس وضواحيها
2- سوسة	**2- الجريد**	**2- الجريد**
3- الجريد	3- سوسة	3- سوسة

[415] Machuel (M.L), *L'enseignement…op.cit*, p 62.

[416] الزيدي (علي)، **التعليم بصفاقس…نفس المرجع**، ص 83.

[417] الصورة رقم 3.

[418] انظر بحثنا "**الحياة الفكرية والثقافية بالجريد خلال القرن التاسع عشر**"، رسالة بحث لنيل رسالة الماجستير، نوفمبر 2008 ،الذي تطرقنا فيه إلى لباس أهالي الجريد.

[419] Ben Achour (M.), Notes et chiffres…*op.cit*, p 80.

4- صفاقس	4- جربة	4- جربة
5- جربة	5- المنستير	5- المنستير
6- المنستير	6- صفاقس	6- صفاقس
7- الأعراض	7- الأعراض	7- الأعراض
8- بنزرت	8- قفصة	8- قفصة
9- المهدية	9- المهدية	9- المهدية
10- غار الملح	10- غار الملح	10- غار الملح
11- قفصة	11- بنزرت	11- بنزرت
12- كسرى	12- كسرى	12- كسرى
13- تستور	13- تستور	13- تستور
14- ماطر	14- ماطر	14- ماطر
15- زغوان	15- زغوان	15- زغوان
16- قمودة	16- قمودة	16- قمودة

الجدول عدد 3: أفضل مناطق الإيالة على مستوى التعليم[420].

المناطق	عدد التلاميذ	عدد المدرسين	عدد الكتاتيب
تونس	3500	123	123
الساحل	2955	126	133
الجريد	**1306**	**101**	**90**
صفاقس	1067	38	37
جربة	1056	58	58

ليس من الغريب أن تحتل منطقة الجريد هذه المرتبة الهامة بين مناطق الإيالة خاصة على مستوى التعليم، هذا المجال الذي كان له الدور الكبير والأساسي في تحقيق إشعاع المنطقة الثقافي، فعند ذكر اسم توزر أو نفطة يتبادر إلى الأذهان سريعا علماء الجريد، أدباء الجريد، فقهاء الجريد...هؤلاء الذين فاقت شهرتهم المجال التونسي.

[420] *Ibidem.*

بصفة عامة، فقد كان التعليم داخل الكتاتيب في بداية القرن التاسع عشر وحتى النصف الثاني منه يعتمد أساسا على حفظ القرآن عن ظهر قلب دون ترك المجال للتلميذ لدراسة علوم أخرى كالفقه والأدب والنحو، كما كان هذا التعليم يعتمد أساسا على الذاكرة دون الذكاء. فخلال مدّة إقامته بالمدرسة القرآنية لا يقوم التلميذ إلاّ بتجميع وتكديس الآيات القرآنية داخل ذاكرته دون فهم معناها تماما كما كان يلقّنها المؤدب دون شرحها، لذلك كان التلميذ سريعا ما ينسى ما حفظه ويكون مضطرّا في غالب الأحيان إلى إعادة حفظ السّور التي درسها سابقا وهو ما يفسّر طول مرحلة الدراسة، فعشر أو اثني عشر سنة كانت لازمة لحفظ كامل ن القرآن.

كما وقع داخل هذا النظام التدريسي تغييب ملكات الذكاء عند التلميذ، فالمؤدب لا يقوم بطرح الأسئلة وتقريب الأفكار والعلاقة بين الأشياء وتسلسل الأحداث والعلاقة بين السبب والنتيجة، لذلك لم يتعوّد التلميذ على التفكير والنقد والقيام بأيّ مجهد فكري وكان يغادر الكتّاب دون البحث والتساؤل والتفكير[421].

إضافة إلى ذلك لا يتضمّن برنامج التعليم داخل الكتّاب فترات الاستراحة والألعاب والنزهة والأنشطة البدنية، فقد كان التلميذ مجبرا على الجمود لفترات طويلة مضرّة بنموّ بدنه. ويكون الكتّاب باردا في فصل الشتاء والإضاءة ضعيفة، كما ذكر ماشيوال *Machuel* أنّ معدات وتجهيزات الكتاتيب تعد بدائية[422] فغالبا ما نجد داخل الكتاب بعض الأحصر وزربية للمؤدب، ولا يستلزم للتلميذ كأدوات مدرسية سوى لوح وريشة من القصب وحبر[423].

ولأقل الأخطاء يرى التلميذ زملاءه ينقضّون عليه ويمسكون بيديه ويرفعون رجليه ليهوي المؤدّب على قدميه ضربا مبرحا "الفلقة". وبذلك فقد تميّز هذا التعليم بالتعقيد نظرا إلى طبيعة الجهد الذي يقوم به التلميذ والغموض في طريقة التنظيم وبالعنف نظرا إلى طبيعة العلاقة البيداغوجية القائمة بين المدرّس والتلميذ [424]. كما يمكن أن ينقطع التعليم داخل الكتاتيب خلال فصل الخريف في موسم جني التمور حيث تغلق الكتاتيب أبوابها ويهجرها التلاميذ إذ يشتغل عدد كبير منهم خاصة من ضعاف الحال إلى جانب الخماسة ليحصلون مقابل عملهم على أجر زهيد أو بعض التمر.

تدريجيا تقلّص عدد المدرسين وعدد الكتاتيب خاصة بعد أن انتزعت الحكومة أوقاف الزوايا وأحدثت للمدرسين جرايات وهي في حقيقة الأمر إعانات لا تفي بالغرض مما دفع بالعديد من المدرسين إلى الانقطاع عن التدريس واضطر البعض إلى تقديم دروس مجانية حتى لا يتوقّف التعليم ولا ينقطع التلاميذ، إلاّ أنّ الأمور ازدادت سوءا عما كانت عليه لأنّ الجهل قد بلغ أقصى درجاته وأصبح التعليم حكرا على العائلات المرموقة والأعيان الذين كانت لهم القدرة على إرسال بنائهم إلى جامع الزيتونة أو حتى خارج الإيالة لاستكمال تعليمهم.

---

[421] Kraiem (K.), *La Tunisie…op.cit*, p 163.

[422] Machuel (M.L.), *L'enseignement…op.cit*, p 62.

[423] *Ibidem*.

[424] Ben Achour (M.), *Notes et Chiffres…op.cit*, p 72.

II- من الكتاتيب إلى المدارس القرآنية العصرية

اهتم خير الدين اهتماما كبيرا وخاصا بالتعليم داخل الكتاتيب ومنها كتاتيب الجريد: *"فإنه قد بلغ لحضرة المعظم مولانا دام عزه وعلاه ما وقع ببعض بلدان المملكة من تنافي تعليم القرآن العظيم لذلك التفتت الحضرة العلية إلى الاعتناء بهذا الشأن"* [425]. وصدر الإذن إلى القايد محمد مرابط بإحصاء عدد المتعلّمين والمدّرسين والجوامع بالمنطقة: *"وصدر الإذن العلي بتحرير تقرير يشتمل على بيان ما بكل بلد من بلدان العمل من عدد المكاتب المعدّة للتعليم وعلى عدد الأطفال المباشرين بها وشرح أحوال المؤدبين الآن من استكمالهم لشرايط تعليم القرآن العظيم أولا وشرح أحوال أهل كل بلد من الإقبال على التعليم أو التغافل عنه وكذلك أحوال المكاتب بكل بلد في استقامتها من حيث الصحة وهل في الصحيح منها كفاية نبين مقدار ما يلزم من المصروف عليها تقريبا"* [426]. وفي حقيقة الأمر فإن رغبة الوزير في الإطلاع على الكتاتيب مترتبة على ما بلغ الباي من وقوع تناقص في القرآن في بعض مناطق المملكة لذلك جاءت بادرة الوزير دافعا للنهضة بالكتاتيب بإصلاح الفاسد منها وبعث عدد في المناطق التي تشكو نقصا[427].

وقد كانت إحصائيات التعليم التي قام بها القايد في الجريد على النحو التالي:

الجدول عدد4: بيان عدد مكاتب بلد توزر المعدة لتعليم القرآن وعدد المؤدبين والأطفال المتعلمين [428]

المكاتب	المؤدبين	الأطفال
مكتب بزاوية الشيخ البركة سيدي أحمد بن حامد العبيدي	2	18
بالمكان مكتب	2	18
بالمكان مكتب	1	7
بالمكان مكتب	1	17
بمكاتب الزاوية المذكورة طلبة أفاقية		41
مكتب بزاوية الشيخ سيدي عبيد الأخضر	1	24
بالمكان مكتب	1	6
بالمكان مكتب	1	10
مكتب بسيدي عبيد	2	12
مكتب بالمدرسة الحسينية	1	27
مكتب بمدرسة سيدي أحمد الغوث	1	11

[425] **(أ،و،ت)**، س ت، ح 21، م 238، و 101، بتاريخ 24 ربيع الثاني 1874/1292، نسخة مكتوب من محمد مرابط أمير أمراءعساكر القيروان وعامل الجريد إلى الوزير الأكبر خير الدين.

[426] **المصدر نفسه**.

[427] قاسم (أحمد), "الكتاتيب"... **نفس المرجع**, ص 161.

[428] **نفس المصدر**، و 103.

مكتب بمدرسة سيدي بن غلاب	1	5
مكتب بمدرسة سيدي أبي عابد	1	46
مكتب بزاوية سيدي علي بن طالب	1	17
مكتب بمدرسة سيدي الطاهر	1	35
مكتب بزاوية الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني	3	65
مكتب بجامع مسغونة القبلي	1	9
مكتب بجامع مسغونة الجوفي	1	3
مكتب بالمكان	1	11
مكتب بمدرسة سيدي سالم	1	22
مكتب بجامع الزغبة	1	19
مكتب بجامع سيدي سعيد	1	25
مكتب بجامع سيدي العطوان	1	33
مكتب بجامع الزبدة	1	13
مكتب بزاوية سيدي مصطفى بن عزوز	2	33
مكتب بجامع الشرفة	1	23
مكتب بمدرسة سيدي التواتي	1	11

الجدول عدد 5: أسماء المكاتب ببلد نفطة وعدد المؤدبين والمتعلمين بها [429]

المكاتب	**المؤدبين**	**المتعلمين**
مكتب بزاوية سيدي أحمد ميعاد	1	10
مكتب بزاوية سيدي إبراهيم خريف	1	9
مكتب بجامع الشيخ سيدي ضيف الله	1	10
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي سالم بن علي	1	11
مكتب بجامع الشيخ سيدي الحاج بوبكر	1	7
مكتب بجامع الشيخ سيدي عرفة	1	6
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز	1	11
مكتب بجامع الشيخ سيدي بن الجد	1	8
مكتب بجامع الشيخ سيدي حمادي	1	9
مكتب بجامع الشيخ سيدي الحسين	1	2

[429] **نفس المصدر**، و 102.

مكتب بجامع الحاج عمارة	1	12
مكتب بجامع الشيخ سيدي ضيف الله	1	15
مكتب بجامع الشيخ سيدي سعيد	1	6
مكتب بجامع الكرايمة	1	12
مكتب بزاوية الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني	1	6
مكتب بزاوية سيدي الحشاني	1	8
مكتب بجامع أولاد التواتي	1	9
مكتب بجامع الشيخ سيدي جبنون	1	7
مكتب بمدرسة نصرالله	1	5
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي علي مرابط	1	9
مكتب بجامع الشيخ سيدي علي بن سياري	1	23
مكتب بجامع الهوايده	1	15
مكتب بجامع سيدي مزهود	1	14
مكتب بجامع السوالم	1	4
مكتب بجامع الشيخ سيدي مبارك	1	11
مكتب بجامع الخلالطة	1	12
مكتب بجامع المعالجة	1	4
مكتب بجامع الرزايقة	1	12
مكتب بجامع المصاعبة	1	5
مكتب بجامع المصاعبة	1	16
مكتب بجامع الشيخ سيدي الحاج	1	9
مكتب بجامع سيدي مخارق	1	11
مكتب بجامع سيدي الشيخ شمسة	1	8
مكتب بجامع الشيخ سيدي زمرتل	1	11
مكتب بجامع الشيخ محمد بن نصر	1	12
مكتب بجامع الشيخ محمد بن عمر	1	19
مكتب بجامع الشيخ سيدي أحمد بن الحاج	1	8

الجدول عدد 6: سماء المكاتب ببلد الوديان وعدد المؤدبين والمتعلمين [430]

[430] **نفس المصدر**، و 106.

المكاتب	المؤدبين	المتعلمين
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي عبد الله بورويس	1	17
بالمكان مكتب	1	7
بالمكان مكتب	1	5
مكتب بجامع قديلي	1	13
مكتب بجامع الكرموس	1	11
مكتب بمسجد الشيخ سيدي بكار	1	11
مكتب بمسجد الشيخ سيدي جليب	1	11
مكتب بمسجد البطامة	1	13
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي بوناب	1	32
مكتب بجامع أولاد ماجد	1	7
مكتب بمدرسة الشيخ محمد الصالح	1	2
مكتب ببلد كريز	1	8
مكتب بمدرسة الشيخ سيدي حمادي	1	8
مكتب ببلد سدادة	1	8

الجدول عدد 7: أسماء المكاتب ببلد الحامة وعدد المؤدبين والمتعلمين [431]

المكاتب	المؤدبين	المتعلمين
مكتب بمسجد النملات	1	22
مكتب بمسجد بلد محارب	1	25
مكتب بمسجد سيدي الحاج زايد	1	10

الجدول عدد 8: مجموع أعداد المكاتب والمؤدبين والمتعلمين في بلدان الجريد سنة 1874

بلدان الجريد	عدد الجوامع والزوايا	عدد المدّرسين	عدد المتعلمين
نفطة	37	37	366
توزر	26	33	561
الوديان	14	14	153

[431] **نفس المصدر**، و 104.

الحامة	3	3	57

تبينا من خلال هذه الجداول أن الكتاتيب في منطقة الجريد تنوعت حسب موقعها وقد تعدّدت خاصة الكتاتيب داخل الزوايا والجوامع وحملت اسمها فكان عددها 20 من 26 في توزر و28 من جملة 37 بنفطة، و8 من جملة 14 بالوديان و 1 من جملة 3 بالحامة، كما وجدت كتاتيب بزوايا الطرق الصوفية الهامة مثل الطريقة القادرية والطريقة الرحمانية بتوزر ونفطة وهنا يظهر الارتباط الوثيق بين الدين والتعليم. من جهة أخرى كان لكل حي كتاب خاص به أيضا لكل عرش كتاب مثل كتاب جامع الزبدة وجامع الشرفة وجامع الزبدة بتوزر وكتاب بجامع المصاعبة وجامع الكرايمة.

لقد كانت نفطة كما يبرز الجدول تحتوي على أكبر عدد من الجوامع والزوايا وعدد المدّرسين على الرغم من أن عدد المتعلّمين بها لم يكن كبيرا. وهذا ليس بالغريب على هذه القرية التي سمّيت لكثرة قبابها "الكوفة الصغرى"، كما تميّزت بكثرة علمائها وكثرة طلابها الذين يفدون إليها من كل الآفاق للتعلّم والتّفقه في الدّين:" *فكانت كعبة ثانية بالقطر التونسي يقصدها طالبوا العلم من القطر الجزائري والتونسي و الطرابلسي*"[432]. ويظهر من خلال هذه الجداول أنّ نسبة التعليم كانت هامة من حيث عدد الجوامع وعدد المدّرسين والمتعلمين في قرى الجريد المحتوية على أكبر عدد من السكان أي في نفطة وتوزر على حساب القرى الأخرى أين تقلصت الأعداد تدريجيا بين الوديان والحامة، ولا غرابة في هذا التفاوت لأن توزر ونفطة كانتا منذ القدم مركزا للاستقرار البشري فضلا عما كانتا تحضيان به من إشعاع ثقافي واقتصادي.

لكن مع مرور الوقت، تقلّص عدد المدّرسين وطلبة العلم بكامل الجريد نتيجة لتأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر حيث كان لهذه الأوضاع تأثيرا كبيرا على مجال التعليم كما قال الأهالي: "*جلّنا غير قادر عليه وأكثرنا للثروة توصله إليه*"[433]، فقد أصبح التعليم في منطقة الجريد شديد الارتباط بالأوضاع العامة خاصة المادية منها فانعكست الحالة المتردية للأوضاع على التعليم ولم يعد بمقدور الأهالي وأبنائهم مواصلة تعليمهم داخل المنطقة وخارجها، بينما سهل على النفر القليل منهم ذلك وهم الأغنياء من الأعيان والمشايخ وكبار الملاكين الذين كانت لديهم القدرة لإرسال أبنائهم خارج المنطقة لمواصلة تعليمهم.

وهذه العلاقة بين التعليم والوضع الاقتصادي والاجتماعي وتأثره بهما تتأكد ما إذا عدنا إلى الماضي القريب للمنطقة أو حتى قبل ذلك إلى الفترات التي عرفت فيها رخاء اقتصاديا، ففي هذه الفترة برز في المنطقة العديد من العلماء والشيوخ الأفاضل الأجلاء المتشبعين بشتى العلوم والمعارف.

---

[432] (**أ،و،ت**)، السلسلة E، الحافظة 280، الملف 9، الوثيقة رقم 37، بتاريخ 26 نوفمبر 1921، نسخة مكتوب من محمد الشريفي و التابعي بن الوادي إلى الوزير الأكبر الطيب الجلولي .

[433] **نفس المصدر**، و 5، بتاريخ 7 رمضان 1321، نسخة مكتوب من أهالي توزر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور.

إلاّ أنّ التعليم داخل الهياكل التعليمية قد تراجع تدريجيا إلى أن انعدم وذلك لعدة أسباب من أهمها عزوف المدرسين والمؤدبين عن القيام بمهمتهم لضعف حالهم وقد اضطر العديد منهم إلى الاشتغال بقطاعات أخرى كالتجارة والفلاحة. إضافة إلى ذلك حالة الخراب والإهمال التي كانت عليها الزوايا والكتاتيب، فاضطر الأهالي إلى إغلاقها وامتنعت داخلها الشعائر والصلوات. ولما فتحت المدرسة الصادقية أبوابها عجز الأهالي عن إرسال أبنائهم لمواصلة تعليمهم وانقطع المدّرسون لضعف حالهم عن تقديم الدروس، ونظرا لتغافل الحكومة عن القيام بإصلاحات لتحسين مستوى التعليم أصبح الجريد في نهاية القرن التاسع عشر في حاجة إلى مدّرسين يقع تعيينهم بصفة رسمية.

وفي حقيقة الأمر جاءت هذه الحاجة في وقت أصبحت فيه المنطقة خالية من المدّرسين *"إذ لم يكن بتوزر مدرسون"* [434]، كما أن تقديم هذه المطالب جاء في إطار وعي الأهالي بأهمية العلوم، فأهل توزر *"محتاجون كثيرا لمن يعلمهم العلوم النقلية والعقلية "* [435] في وقت أصبحت فيه الزوايا والمساجد خالية من المدرسين والتلاميذ. ولا يمكن لمنطقة الجريد أن تصير على هذه الحال وهي التي كانت في وقت مضى مركزا فكريا وثقافيا هاما. لذلك أصبح الأهالي على درجة كبيرة من الوعي بضرورة اكتساب المعرفة حتى يتسنى لهم *"تحصيل ما يجب معرفته من الفروع الرقمية والقواعد اليقينية وتستقيم بنشر العلم عبادة العباد وتشرق شمس المعارف في البلاد ونكفي الاغتراب للعلم الذي جلنا غير قادر عليه وأكثرنا للثروة توصله إليه، وبلدنا لا يغرب عن شريف علم كان لها الحظ الأوفر من التماثل العلمي ولأهاليها أكمل القابلية للتحصيل وقد كاد أن يضمحل أصل التعلّم ويسود الجهل"* [436].

لكن بالرغم من الحالة التي أصبح عليها التعليم في منطقة الجريد في نهاية القرن التاسع عشر، فإنه بدأ في المقابل يتخذ شكلا جدّيا ورسميا عما كان عليه قبل ذلك حيث كان تعيين المؤدب يتم بطريقة تقليدية لا تخضع عادة للمقاييس والشروط المعمول بها. وفي هذا الإطار طالب أهالي توزر *"جعل الشيخ سي إبراهيم بن محمد البختري مدّرسا بالمكان"* [437]، كما جاءت مطالبهم مشتملة على الدّرجة العلمية: *"أنّ الشيخ المذكور حسن وله مكانة في العلم وبيده إجازات"* [438]، منها أن يكون المدّرس حاصلا على درجة التطويع من الجامع الأعظم[439]. فلما طالب أهالي توزر في مكتوبهم سنة 1898 إلى الوزير الأكبر ضمان مرتّب لمحمد بن الطيب الخطبي التوزري الذي يدرّس في جامع أولاد السوداني: *"فالمطلوب من فيض كرمكم العام وبروركم التام أن تأمر له بمرتّب يكون له إعانة على التدريس"* [440]، رفضت الوزارة ذلك لأنّ *"خطة التدريس يستحقها من أحرز رتبة التطويع أو كانت*

---

[434] **نفس المصدر**، س D، ح 47، م 5، و 2، بتاريخ 25 سبتمبر 1894 نسخة مكتوب من الوزير الأكبر مخاطب به أمير اللواء محمد صفر رئيس جمعية الأوقاف.

[435] **نفس المصدر**، و1، بتاريخ أوت 1894، نسخة مكتوب من مشايخ توزر والأعيان إلى الوزير الأكبر محمد بوعتور.

[436] **نفس المصدر**، و5، 7 رمضان 1321، نسخة مكتوب من أهالي توزر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور.

[437] **نفس المصدر**، و2، بتاريخ 25 سبتمبر 1894، نسخة مكتوب من الوزير الأكبر مخاطب به أمير اللواء محمد صفر رئيس جمعية الأوقاف.

[438] **المصدر نفسه**.

[439] شهادة ثانوية تسند من جامع الزيتونة.

[440] **نفس المصدر**، و3، بتاريخ 4 جمادى الأولى 1897/1315، نسخة مكتوب من أهالي توزر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور.

بيده إجازات من جناب المشايخ النظّار بالجامع الأعظم بالحاضرة" [441]. لذلك لم تأمر بمنحه مرتبا لأنّه يفتقر إلى إجازات وطلبت تطوعه للإقراء مجانا أو أن يحصل على إعانة من الأهالي الذين طلبوا تعيينه. وهنا يمكن الإشارة إلى تحسن المستوى التعليمي والمعرفي للمدّرسين والمؤدبين في منطقة الجريد، ولم يعد المؤدب مجرد حافظ للقرآن يقوم بتعليمه وتحفيظه للتلاميذ معتمدا طريقة أسلافه، فبحصوله على شهادات وإجازات خاصة من الجامع الأعظم أصبح المؤدب قادرا على تدريس جميع العلوم، وبذلك تنّوعت مناهج التدريس في المنطقة ولم تعد مقتصرة على حفظ وتلقين القرآن.

لقد كانت جملة المطالب التي وجّهها الأهالي الجريدية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الحكومة التونسية لتعيين مدّرسين في بعض المساجد والزوايا تدعو إلى تخصيص جرايات لهؤلاء لضعف حالهم، وفي الحقيقة فإنّ طلب تقديم هذه الجرايات يساهم بالإضافة إلى تحسين مستوى عيش فئة من المجتمع الجريدي وهي الفئة المثقّفة: **"***محتاج لمصاريف تقوم بضروریاته إذا اشتغل بتعلیم الناس وبالتدریس"* [442]، وإلى دفع هؤلاء المدرسين ماديا ومعنويا للقيام بمهمة التّدريس في وقت أصبح فيه الأهالي متعطّشين للعلم والمعرفة وحتى تخرج المساجد والزوايا من صمتها وتمتلئ بالتلاميذ ويقرؤون ويكرّرون ويكتبون *"فالفقر وقلة ذات اليد هما العلة التي كانت وراء تعطيل هذه الكتاتيب وحرمان أبناء هذه الجهات وغيرها من التعلم. كما يتضح أن ما حصل كان مصاحبا لفترة الاضطرابات التي عاشتها تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"* [443]. وليبلغ التعليم في المنطقة ما بلغه في الإيالة من تطور، فبين 1885 و 1890 مرّت ميزانية إدارة التعليم العمومي من 120 إلى 530 ألف فرنك وتطّور عدد التلاميذ من 4390 تلميذا سنة 1885 إلى 10900[444].

من جهة أخرى، وجهت جملة المطالب التي أرسلها الأهالي الجريدية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الحكومة لتعيين مدّرسين بجامع أولاد السوداني خاصة مما يجعل منه أهم مؤسسة تعليمية ويعطيه صبغة رسمية تجعل منه فرعا من فروع جامع الزيتونة وربما تؤكد تسميته *"بالجامع الأعظم"* [445] هذا الانتماء.

الخاتمة

كان العرف السائد والجاري أن يدخل التلميذ في مرحلة أولى إلى الكتاب كقاعدة أولية للتعليم الابتدائي، هذه الكتاتيب رغم الحالة التي كانت عليها لعبت دورا أساسيا في نشأة التلميذ وتكوينه وإعداده للمراحل القادمة. هذا وقد عرفت منطقة الجريد بكثرة كتاتيبها التي يؤمها العديد من التلاميذ سواء من داخلها أو من الوافدين لحفظ القرآن والتفقه في الدين قبل الالتحاق فيما بعد بجامع الزيتونة آو فروعه لاستكمال مناهج التعليم. كما وجد في المنطقة العديد من

---

[441] **نفس المصدر**، و4، بتاريخ 24 أكتوبر1897، نسخة مكتوب من جناب الوزير الأكبر مخاطب به يونس حجرح عامل توزر.

[442] **نفس المصدر**، و 1، بتاريخ أوت 1894، نسخة مكتوب من مشايخ توزر والأعيان إلى الوزير الأكبر محمد بوعتور.

[443] قاسم (أحمد), "الكتاتيب"... **نفس المرجع**, ص 147.

[444] Kassab (A.), *Histoire de la Tunisie…op.cit*, p 220.

[445] **(أ،و،ت)** س D، ح 47، م 5، و3 بتاريخ 4 جمادى الأولى 1897/1315 ، نسخة مكتوب من أهالي توزر إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور.

هذه المكانة التي حظيت بها منطقة الجريد على مستوى التعليم لها جذور أساسا تاريخية، فالمنطقة كانت خلال الفترة الوسيطة وحتى بعد ذلك مركزا فكريا وثقافيا هاما قبل أن ينيخ القرن التاسع عشر بأزماته على المنطقة التي تضرّر منها التعليم تضررا كبيرا وتراجع عما كان عليه في الفترات السابقة، وبمرور الوقت أصبحت المنطقة تشكو نقصا في عدد المدرسين وهجر التلاميذ الكتاتيب والجوامع والمدارس التي عمها الإهمال والخراب. من جهة أخرى ساهم تأسيس المدارس الفرنكو- عربية في المنطقة منذ 1889 في تراجع تعليم الكتاتيب لأن السلطات الاستعمارية عملت على تهميش هذا المؤسسات وحث الأهالي على إلحاق أبنائهم بمدارسها كوسيلة من وسائل الغزو الثقافي للبلاد.